International Jordanian Journal Aryam for Humanities and Social Sciences; IJJA
Volume2, Issue4, 2020

Abbasid Diplomatic Relations with Byzantium, 247–565 AH / 847–1258 AD

Dr. Salwa Altajany Fadel Jaber Allah

Al-Zaeem Al-Azhari University- Sudan

Received: 5/9/2020
Revised: 9/10/2020
Accepted: 19/11/2020
Published online: 2/12/2020

* *Corresponding author:*
Email:
.salwa.alfadol@gmail.com

Citation: *Jaber Allah.S. (2020). Abbasid Diplomatic Relations with Byzantium, 247–565 AH / 847–1258 AD. International Jordanian journal Aryam for humanities and social sciences; IJJA, 2(4).*
https://doi.org/10.65811/243

©2020 The Author(s). This article is an open access article distributed under the terms and conditions of the Creative Commons Attribution 4.0 International (CC BY 4.0) license. https://creativecommons.org/licenses/by/4.0/

International Jordanian journal Aryam for humanities and social sciences: Issn Online **2706-8455**

Abstract: This paper sheds Light on the significance of the embassies and the byzantine correspondence during the second Abbasid age (247-656 H / 847 - 1258 AD). The importance of recognizing the qualities of the ambassadors and their political and cultural potential land their role of diplomatic relation. The paper aims at identifying the historical roots of the Islamic embassies delegated to the byzantine state. The paper also aims at highlighting the significance and the role played by ambassadors in the two states. Besides ، the paper tries to identify the types of correspondence and messages .the paper follows the descriptive analytic approach. The paper achieved several finding the most important of these are the diplomatic decision is an essential pillar in the state's foreign policy ،the diplomatic work of the Muslim also proved to be of different styles and ways.

Keywords: Messengers, office, safety, accreditation, decision .

العلاقات الدبلوماسية العباسية مع بيزنطة ٢٤٧-٥٦٥هـ/٨٤٧-١٢٥٨م

د. مساعد سلوى التجاني فضل جبر الله

الملخص: تهدف هذه الدراسة إلى ابراز أهمية السفارات والرسائل البيزنطية في العصر العباسي الثاني (٢٤٧-٥٦٥هـ/٨٤٧-١٢٥٨م) وأهمية التعرف على صفات السفراء وإمكانياتهم السياسية والثقافية وابراز دورهم في تطوير العلاقات الدبلوماسية وتهدف هذه الدراسة إلى معرفة الجزور التاريخية للسفارات الإسلامية إلى دولة الروم، وابراز أهمية دور السفراء ومكانتهم في الدولتين والتعرف على أنواع المكاتبات والمراسلات، وقد اتبعت الدراسة المنهج التاريخي والوصفي والتحليلي. وقد توصلت الدراسة إلى عدة نتائج أبرزها أن القرار الدبلوماسي ركيزة اساسية في سياسة الدول الخارجية وأن العمل الدبلوماسي عند المسلمين أتخذ طرق عديده واساليب مختلفة.

الكلمات المفتاحية: الرسل، الديوان، الأمان، الاعتماد، القرار.

المقدمة

كان لظهور الإسلام أثر كبير ومباشر في تغيير وجه الحياة في العصور الوسطي، وبالتالي في تغيير نمط العلاقات الدولية في ذلك الحين، حيث أصبحت البلاد العربية دولة موحدة تحمل رسالة جديدة بهرت بها العالم وكانت الحضارة العربية الإسلامية التي تفوقت وبعد وقتاً وجيزاً على حضارات العالم آنذاك.

الاتصالات الدبلوماسية بين بيزنطية والدولة الإسلامية استمرت طويلاً وأخذت طابعاً مميزاً فترة الدولة العباسية، وكان على المسلمين أن يباشروا الاتصالات الدولية مع القوى السياسية في عصرهم، ومن أقرب هذه الدول إليهم جيرانهم البيزنطيين أو لم تكن علاقات بين الفريقين متصلة الحلقات بل اخذت أنظمة وأشكال مختلفة.

يقال سفر وأستفسر يسفر سفرا وسفارة وبكسر السين وفتحها والسفير هو المصلح بين القوم والماشي في الصلح بينهم والجمع سفراء[١]،أما الرسول فهو مأخوذ من الإرسال وهو التسليط والإطلاق والتوجيه، ومن عمله نقل أخبار من بعثه إلى المرسل إليه وتوجيهه بما يراه مرسله[٢]. والمعنى المشترك بين السفير والرسول هنا نقل الرسائل والأخبار إلى الدول وبلاطاتها المختلفة والمفاوضات والحوار بشأن ما يهم الدولة القادم منها، وقد عرف العرب السفارة في جاهليتهم وإسلامهم، واستسفرت قريش في الجاهلية سهيل ابن عمرو وعمر بن الخطاب إلى القبائل المجاورة لها[٣]،وأول من سن السفارة في الإسلام الرسول صلى الله عليه وسلم عندما بعث سفراءه ليحملوا رسائله إلى أباطرة البلدان القريبة من بلاد العرب وملوكها ليهتدوا، فبعث سفراءه إلى كسرى ملك فارس، وإلى هرقل عظيم الروم وإلى النجاشي ملك الحبشة، وإلى المقوقس حاكم مصر، ليدعوهم إلى الإسلام. في أول اتصال للسفارات بين دولة الإسلام والدول الأخرى[٤]،وقد ازدهر هذا الاتصال في العصور الإسلامية التالية واتسعت أهدافه ليشمل قضايا الحرب والسلم بين المسلمين وجيرانهم، وأصبح لهذا الاتصال رجاله ومراسمه وقواعده وأصبح مفهوم السفارة والسفراء عند المسلمين لا يختلف في جوهره عن مفهوم الدبلوماسية المتعارف عليها في علاقات الدول الحديثة في أنظمتها وقواعدها.

فالدبلوماسية كلمة يونانية الأصل من الفعل اليوناني (دبلوما Diploma) ويعني أكرر وأتبادل. والاسم هو (دبلوما Diploma) ويعني ما هو مزدوج أو متبادل، ويقصد به أيضا خطاب توجيه أو اعتماد وخاصة جواز السفر.[٥]

---

[١]. بن منظور (ابوالفضل جمال الدين محمد بن مكرم، ت٧١١هـ) لسان العرب، دار الكتب العلمية، بيروت ،١٩٥٥م ص ١٠٠.

[٢]. الأزهري (أبو منصور محمد بن أحمد المتوفى٣٧٠هـ) تهذيب اللغة، تحقيق أحمد البر، الهيئة المصرية، القاهرة ١٩٩٩م، ج ١٢، ص ٣٩١.

[٣]. سهيل بن عمرو بن عبد شمس العامري خطيب قريش قبل الإسلام، وهو الذي تولي مفاوضة النبي صلي الله عليه وسلم في صلح الحديبية، ولما أسلم حسن اسلامه وخرج مجاهداً الي الشام وقال "لا أدعي موقفاً وقفته مع المشركين إلا وقفت مع المسلمين مثله وظل بالشام حتى توفى بالطاعون، أنظر أبن حجر (أحمد بن علي ت ٨٥٢هـ) الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق علي محمد البجاوي، دار النهضة مصر، القاهرة ١٣٨٧هـ، ج٣، ص٢١٢.

[٤]. ابن حجر، مصدر سابق، ص١٠٩-١١١.

[٥]. الرحيلي، سليمان، السفارات الإسلامية إلى الدولة البيزنطية، مكتبة التوبة، الرياض ،١٤٤١هـ، ص٢٣.

والدبلوم في علم الوثائق هو ما يعرف اصطلاحا بعلم الدبلومات ومعناه الوثيقة الرسمية التي تصدر من جهة رسمية أو من شخص له صفة رسمية.

وسميت الدبلوماسية كذلكdiplomatic diplomacy لأن العلاقات بين الدول تتم في الغالب خلال تبادل الرسل والمكاتبات الرسمية التي تعد بذاتها وثائق بهذا المعنى وسميت هذه الأعمال بالشئون الدبلوماسية حتى أواخر القرن الثاني عشر الهجري "أواخر القرن السابع عشر الميلادي " أما المبعوث الذي يتولى محاورة الآخرين في الحرب والسلم فأطلق عليه لقب مفاوض وسميت مهمته مفاوضة.[٦]

ومنذ القرن الثالث عشر الهجري (الثامن عشر الميلادي) شاع لفظ الدبلوماسية بمعناه الحديث وتعني في تعريف موجز وشامل لرفييهRiver "علم وفن تمثيل الدول والمفاوضات". ومن هذا يتضح أن الدبلوماسية بمختلف فروع معانيها كالمحفوظات الوثائقية والمفاوضات كانت معروفة للإنسان في مختلف عصور حياته ومعتقداته سواء في صورتها الأولى التي قامت بين الآلهة والبشر في تبادل الرسل والدعوات أو بين الدول المتجاورة أو المعروفة للمفاوضة بشأن الحرب والسلم بغمد سيف الحرب ونشر لواء السلام ولهذا يقسم تاريخ الدبلوماسية إلى طورين:

الأول: قديم هو طور البعثات العابرة غير الدائمة في عواصم الدول الأخرى وقد عرف هذا النمط عند الرومان والفرس والمسلمين وظل قائما حتى القرن العاشر الهجري (الخامس عشر الميلادي).

الثاني: حديث وهو طور البعثات الدبلوماسية الدائمة التي تقيم في عواصم الدول وتتخذ لها مقرا دائمة فيها، ووجد منذ نهاية الطور الأول ومازال معروفاً لنا ويتشابه النمطان في وظائفهما والمهام التي يقوم بها أعضاء تلك البعثات في القديم والحديث، وهو وضع تطلبه طبيعة الحياة في الدول الحديثة.

ومازال لفظ دبلوماسي Diplomat يطلق على الشخص الذي يمارس الدبلوماسية مهنة رسمية رسولا لدولته إلى دولة أخرى، يزاول تمثيل دولته ورعاية مصالحها سواء بصفة دائمة لرعاية مصالح بلده وحمايتها والمفاوضة حول قضاياها ومراقبة الأحوال والحوادث في البلد المعتمد لديها وتوثيق صلات بلده بها، أو بصفة مؤقتة كان يكلف المبعوث بمهمة خاصة مما يدخل في نطاق الأعمال الدبلوماسية التي يقوم السفراء فوق العادة في النظام الدبلوماسي الحديث بها.[٧]

وإذا كان جوهر الدبلوماسية الحديثة في فهمها المثالي هو الأمانة وأن السفير الناجح هو الذي يعرف كيف يحمل هذه الأمانة من دولته إلى الدول الأخرى ومن شعبه إلى الشعوب الأخرى بما يتحلى به من حس دبلوماسي حضاري، فإن السفراء المسلمين الأوائل كانوا نموذجا سابقاً في هذا المجال، وهكذا يتضح أن المسلمين كانوا من السابقين بين الأمم في معرفة مفهوم الدبلوماسية وتطبيقها وإن لم يستخدموا اللفظة ذاتها، واتبعوا نظام السفارات غير الدائمة، وشابه السفراء المسلمون السفراء فوق العادة حالياً حيث تنتهي. مهامهم بانتهاء أعمالهم.

بوادر السفارات الإسلامية إلى دولة الروم : بدأ اتصال السفارات بين المسلمين والروم في السنوات الأولى من قيام دولة الإسلام في المدينة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم عندما بعث الصحابي دحية الكلبي [(1)] وهو صاحبي جليل إلى هرقل ويعد هذا أول اتصال دبلوماسي بين الدولة

---

[٦]. ابن الفراء (أبوعلي الحسين بن محمد ت حوالي القرن الرابع الهجري) كتاب رسل الملوك وما يصلح للرسالة والسفارة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر،بيروت ١٩٤٧هـ -ط٤، ص ١١٠.

[٧]. دحية الكلبي صحابي جليل كان يضرب به المثل في حسن الصورة، وكان جبريل عليه السلام ينزل على رسول الله (ص) في صورته، بعثه النبي عليه الصلاة والسلام إلى قيصر الروم في سنة سبع، وقد شهد معركة اليرموك في الشام ولما فتح المسلمون الشام نزل في دمشق حتى أدرك خلافة معاوية بن أبي سفيان، أنظرابن حجر، مصدر سابق، ج ٢، ص ٢٨٤-٢٨٥.

الإسلامية ودولة الروم ،وقد حمل دحية الكلبي رسالة الرسول عليه الصلاة والسلام إلى هرقل التي يدعوه فيها للإسلام وهي: (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم سلام عل من اتبع الهدى أما بعد فإني أدعوك برعاية الإسلام أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فعليك إثم الأريسيين) كما جاء في قوله تعلى: " قل يأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون". [٨]

وفي عصر بني أمية عندما أصبحت دمشق عاصمة لدولتهم وأقرب الحواضر الإسلامية إلى الروم تنامت بوادر الاتصال بين المسلمين والبيزنطيين وتعددت السفارات بين دمشق والقسطنطينية ومن أشهر هذه السفارات سفارة قام بها سفير يدعى يوحنا أوفده الروم في عهد الخليفة معاوية بن أبي سفيان (٤٠ -٦٠هـ/ ٦٦٠ – ٦٧٩) للمفاوضة بشأن محاصرة المسلمين لعاصمتهم القسطنطينية وقد اشتهر هذا السفير بلباقته وحكمته واستطاع إنهاء ذلك الحصار، ولم يخف عند عودته إعجابه بالبلاط الأموي وحنكة رجاله[[٩]، وبعث الخليفة عبد الملك بن مروان.(٦٥-٨٦هـ / ٦٨٥-٧٠٥هـ)عامر بن سراحيل الملقب بالشعبي وهو أحد التابعين وكان فقهياً وعلاماً وشاعراً سفارته إلى الإمبراطور جستنيان الثاني Justinian (٦٦-٧٦هـ/ ٦٨٥ -٦٩٥م) وقد أثنى الإمبراطور في رده على الخليفة على الباقة سفيره الشعبي وحذقه. وأرسل الخليفة عمر بن عبد العزيز (٩٩-١٠١هـ/ ٧١٠ / ٧٢٠م) سفارة إلى القسطنطينية وشاهد رجالها مدى تأثر الإمبراطور ليو الثالث (Leo III) عندما بلغه خبر وفاة الخليفة ولعله قد بلغه شيء عن شخصية عمر بن عبد العزيز ومكانته بين المسلمين، كما أنه قد يكون رغب في مجاملة مبعوثي الخليفة الذين كانوا في هذا الوقت في القسطنطينية.[١٠]

صفات السفراء:

السفير واجهة لدولته، ولا بد لهذه الواجهة أن تكون لائقة من جميع الوجوه تروق للناظرين، وتقنع المحاورين، وتحسن التصرف في كل موقف بما يطلبه أن تتزود بحسن المظهر والمخبر في كل حال، وهذا يتطلب منا دراسة صفات السفراء الجسمية والسياسية والثقافية التي كان المسلمون يراعونها في اختيار سفرائهم.

الصفات الجسمية:

كان المسلمون يتقصون حقا في اختيار رسلهم ويمعنون في حسن مظهرهم من وسامة الوجه وجمال المظهر وترتيب الهيئة، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (إذا أبردتم إلى بريدا فليكن حسن الوجه، حسن الاسم)[١١].وذلك إن صورة السفير هي أول ما تقع عليه أنظار الناس وأول ما يصل منه

---

٨. سورة آل عمران، الآية ٦٤

٩. الشعبي، عامر بن سراحيل أحد التابعين وكان فقيها وعالما وشاعرا عاش في الكوفة حتى قيل كان في الناس ثلاثة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ابن عباس

١٠. أبن الفراء، مصدر سابق، ص٣٣

١١. الطبري (محمد بن جريرت٣٢٠هـ/٩٢٢م) تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، دارالمعارف، القاهرة،١٩٦٩م،ج ٩، ص٢٢٠

إليهم، وهيئته عنوان معبر عنه، ثم إن عامة الناس أول ما يرمقون في السفير زيه أكثر مما يرمقون كفايته وسداده فليس مقبولا أن يكون السفير دميم الصورة، أو مفرطة في الطول أو القصر أو فاقدة لأحد أعضاء جسمه أو مهملاً لهيئته وهندامه، ويشترط في السفير أن يكون حسن اللسان فصيح البيان بليغ العبارة تغنيه الإشارة، يقول أحد الحكماء: "اختر لرسالتك في هدنتك وصلحك ومهماتك ومناظرتك والنيابة عنك رجلا حصيفاً بليغاَ حولا قلبا، قليل الغفلة منتهز الفرصة ذا رأى جزل وقول فصل، ولسان سليط وقلب حديد، فطنا للطائف التدبير ومستقلا لما ترجو أو تحاول بالجزامة وإصابة الرأي ومتعقباً له بالحذر والتمييز سامياً إلى ما يستدعيه إليك ويدفعه عنك، إن حاول جر أمر أحسن اعتلاقه، وإن رام دفعه أحسن رده، حاضر الفصاحة مبتدر العبارة ظاهر الطلاقة وثاباً على الحجج[١٢].وهكذا كان المسلمون يشترطون في سفرائهم جمال الصورة كحسن الوجه وترتيب الهيئة وأصالة النسب ورجاحة العقل وسداد الرأي، وواضح أن الوسامة في الصورة والجمال في الهيئة تشوق الأعين وتفتن القلوب وترفع المكانة. والمعروف أن أغلب السفراء المسلمون كانوا بتلك الصفات،، ومن أهمها حنكة السفير السياسية ومستواه الثقافي، فقد كان يشترط فيه أن يكون ذا سياسة فطنة وبصيرة نافذة، ودراية ظاهرة ودهاء وذكاء ثاقب، يتصرف بحنكة ودراية حسب المواقف التي تعرض له في الدولة الموفد إليها دون أن يحيد عن مبادئ دولته ومثلها ومواقفها، يجمع بين سياسة اللين والشدة المبطنة باللين، ولربما يحتاج في بعض المواقف أن يحيل الحق في شخص الباطل والباطل في شخص الحق دون أن يفقد جوهرة الحق والباطل معناه في دهاء ودراية بما يتطلبه الموقف[١٣]، وقوة الشخصية صفة مهمة في المبعوث حتى لا يتأثر بالمواقف التي تواجهه، فهو محتاج من الإقدام والجرأة التي تصادفه في بلاطات الأباطرة والحكام إلى مثل ما يحتاج إليه من الوقار والرزانة، وهو محتاج لأن يكون بعيدا عن التسرع والاندفاع بقدر قربه من التريث والسكينة.

ويجب أن يتحلى السفراء بالأمانة والحلم والصبر، فالأمانة ضرورة في كل وظيفة بل في كل شيء ولزومها في السفير يأتي من عدة وجوه، منها أن السفير ممثل لدولته وحاكمه فيجب أن ينقل موقفه إلى الدولة الموفد إليها بكل صدق دون مبالغة تخرجه عن المقصود وحذف أو إيجاز يقصر عنه، كما أنه مؤتمن في أداء مهمته بكل إخلاص وولاء المن بعثه، فقد تلجأ بعض الدول مكرا وخديعة إلى إتاحة سبل الفاحشة وتقديم الخمرة ونحوها إلى المبعوثين الوافدين إليها، بغية اختبار هذا أو ذاك في التزامه وجدته في أداء مهمته دون التهاء بمطمع أو انشغال بلذة. ثم أن تلك الدول تلجأ إلى هذا الأسلوب بغية انتزاع معلومات عن دولة المبعوث ما كان يدلي بها في حالة صحوه أو قبل ترديه وسقوطه في حبائل مضيفيه ولهذا كانت الدولة تتخير سفراءها من ذوي الصلاح والأمانة والذين يتمتعون بوازع حي من الضمير والرقابة الذاتية.[١٤]

أما الحلم والصبر فهما بلا شك من صفات رجل السياسة الناجح إذ يحتاج السفير إلى الحلم في مداولاته ومفاوضاته في بلاطات الدول المختلفة فقد يستفز ويستثار مرارة ما لم يكن حليماً لبقاً، ويلزمه الصبر في مواطن كثيرة منها الصبر على مشقة السفر ووطأة الاغتراب واختلاف الظروف والمعاش عما تعوده في بلاده بين أهله وعبق وطنه، ومنها الصبر على ما قد يقابل به من إبطاء في تحقيق مهمته وإهمال أو تأجيل برنامج مقابلاته مع حاكم تلك الدولة ورجال سياستها، ويكون ذلك عنوة أحيانا بقصد إدخال الملل والسأم على نفس السفير فيكون ذلك مدعاة للحصول منه عن تنازل أو هنة في موقفه في

---

[١٢]. ابن الفراء، مصدر سابق، ص ٦

[١٣]. ابن الفراء، مصدر سابق، ص ٧

[١٤]. المصدر نفسه، ص١٧

الأمور التي جاء من أجلها[١٥]، وقد مكث السفير العباس نصر بن الأزهر في العاصمة البيزنطية طيلة أربعة شهور يفاوض البيزنطية بكل حلم وأناة وصبر واحتمال مماطلتهم له حتى حقق الهدف الذي جاء من أجله وبالشروط التي تقبلها دولته، وكان يشترط في السفير أن يكون عالما بأحوال الدين والدنيا مبرزا في علومهما على دراية بعلوم الدين ليوضح ويشرح ما قد يسأل عنه حول بعض القضايا، وليدافع ويجادل إذا احتاج الأمر إلى ذلك، عارف باللغة ليعرف دلالات الألفاظ ودقة معانيها بصيراً بمخارج الكلام ووجوهه ليؤدي لفظ مرسله أو كاتبه، ويفهم أسلوب محاوريه ومؤدى كلامهم على الوجه الذي يقصدونه، ويفضل في السفير معرفة لغة الدولة الذاهب إليها فيؤدي هذا النجاح مهمته، فإن لم يتيسر له ذلك كانوا يبعثون معه من يترجم ممن يوثق في كفاءته وولائه، فضلا عن هذا يكون السفير على إطلاع واسع بأحوال دولته وبواطن الأمور عارفا بدواوين الجند ليعرف مواردها ومركزها الاقتصادي وبهذا نرى أن سعة ثقافة السفير تؤدي أو تتيح له النجاح في مهمته ويحقق أهداف دولته.

وكان السفراء المسلمون الذين ذهبوا إلى الدولة البيزنطية ممن توافرت فيهم هذه الصفات السياسية والثقافية السابقة. ويقول الوزير العباسي يحي بن خالد البرمكي: " ثلاثة تدل على عقول أربابها الكتاب يدل على مقدار عقل كاتبه والرسول على مقدار عقل مرسله والهدية على مقدار مهديها " ويقول الشاعر:

إذا كنت في حاجة مرسل فأرسل حكيما ولا توصه [١٦]

ذلك أن السفير مرآة المرسل، يرى مستقبلوه فيه سياسة مرسله وعنوان حكمه في دولته وأمته، وعلى قدر ما يبدر من الرسول يكون الحكم. وكذلك راعي البيزنطيون جل هذه الصفات في اختيار سفرائهم فقد وفد منهم على الدولة الإسلامية عدد ممن أثر عنهم حسن التصرف والذكاء واللباقة وسعة الثقافة.

امتحان الرسل بعد عودتهم:

كان ملوك الأعاجم، إذا آثرت أن تختار من رعيتها من تجعله رسولا إلى بعض خاصة الملك ثم تقدم عينا عليه يحضر رسالته، ويكتب كلامه، فإذا رجع الرسول، فإن اتفقت معانيه اعرف الملك صحة عقله، وصدق لهجته، ثم جعله الملك رسولا إلى عدوه وجعل عليه عينا يحفظ ألفاظه ويكتبها ثم يرفعها إلى الملك، فإن اتفق كلام الرسول وكلام عين الملك، علم أن رسوله قد صدقه من عدوه، ولم يتزيد عليه للعداوة بينهما، جعله رسولا إلى ملوك الأمم ووثق به ثم كان بعد ذلك خبره مقام الحجة[١٧].وهنالك أشياء لابد من مراعاتها بين الرسل والملوك وهي عدم مفاتحة رسل الملك بحضرة الملأ من الناس، وأن يتمكنوا من أداء الرسالة وحمل الجواب. وقد نهى الملوك والسفراء عن العجلة والسفه في المكاتبة.

الرسائل:

---

[١٥]. المصدر نفسه، ص٣٦١.

[١٦]. ابن الفراء، مصدر سابق، ص٣٦١.

[١٧]. القلقشندي (أحمد بن علي ت ٨٢١هـ/١٤١٨م) صبح الأعشى في صناعة الأنشاء، المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والطباعة، د ت، ج١، ص ١٠٨.

كان السفراء المسلمون يحملون رسائل الخلفاء والأمراء إلى الأباطرة البيزنطيين التي تتعلق بقضايا الحرب والسلم بين المسلمين والروم. كأن تتعلق بطلب فداء الأسرى أو توقيع الهدنة أو التهديد بالغزو والهجوم إذا لم يكف الجانب البيزنطي عن تهديد الجبهة الإسلامية أو ثغر من ثغورها، وأحيانا تكون لطلب المساعدات الغذائية أو مجموعات من الكتب التي يمكن أن يفيد منها المسلمون، **وكانت** هذه الرسائل تكتب على أفخر أنواع الورق المعروف وأشهره الورق البغدادي الذي تكتب عليه المصاحف لجودته، فضلا عن جمال خط تلك الرسائل وحسن إخراجها، وذلك لاعتبار ديوان الدولة الصادر عنها والمقام الموجهة إليه. وتكتب الرسائل باللغة العربية بأسلوب مبين، وترفق في الغالب بترجمة لها بلغة الدولة الموجهة إليها أو تكون بدون ذلك فيتولى تراجمه تلك الدولة ترجمتها وتكون الكتابة متوسطة بحيث تترك مسافة متساوية بينها وبين الهوامش فإذا انتهى من كتابتها طويت على هيئة قصبة ووضعت في درج من الذهب أو الفضة أو المعدن المنقوش.[١٨]

أما أسلوب هذه الرسائل فقد كان فصيحاً واضحاً تختلف عباراته حسب الدولة الصادرة منها ومكانة الإمبراطور الموجهة إليه ولكنها لا تخلو في الغالب من عبارات الثناء والتمجيد والمجاملة للأباطرة أيا كانت مكانتهم وتذكيرهم بالعلاقات الطيبة التي كانت قائمة بين أجدادهم وبين المسلمين في بعض الأحيان وقد بولغ في مثل هذا الثناء في الصور المتأخرة وكان من رسم الكتابة الإمبراطور الروم فيها أن يوصف " وإرث القياصرة القدماء محي طرق الفلاسفة الحكماء العالم بأمور دينه، العادل في ممالكه معز النصرانية مؤيد المسيحية " ثم يأتي بعد ذلك المقصود من الرسالة وتختم بعبارات مختصرة من الثناء على الإمبراطور والدعاء له بما يليق.[١٩]

يشار في آخر الرسالة أحيانا إلى اسم السفير الذي يحملها ومكانته في دولته وذكر الهدايا التي يحملها إلى الإمبراطور، وتزيل بتوقيع الخليفة سواء بعبارة بليغة أو وضع بصمة خاتمه الذي يحمل اسمه، ولم تختلف هذه الرسائل بين بلاط إسلامي وآخر سواء في الترتيب والإخراج وفوارق قليلة في خامات الرسائل.[٢٠]

وكانت رسائل الأباطرة البيزنطيين إلى الخلفاء المسلمين على نمط لا يختلف كثيرا عن مثال الرسائل عند المسلمين من احتوائها على عبارات الثناء والتبجيل للخليفة.

ديوان الرسائل:

يعتبر ديوان الرسائل أهم دواوين الدولة الإسلامية وسمي بذلك تسمية له بأشهر وظائفه وهي إصدار الرسائل ويسمى أيضا بديوان المكاتبات، أو ديوان الوثائق، وقد أطلق عليه فيما بعد اسم ديوان الإنشاء باعتبار أن كل مكاتبات الدولة الداخلية والخارجية تنشا عنه وتبتدئ منه وعرف متوليه بصاحب الرسائل أو الوثائق أو الإنشاء.[٢١]

ونظرا لأهمية هذا الديوان وخطورته فقد كانت ولايته تسند لكتاب عرفوا بسعة الأدب وبلاغة اللسان وفصاحة البيان، بل كان يشترط في صاحبه أحياناً جمال الصورة ورفعة النسب وحدة الذكاء

---

[١٨]. الرحيلي، مرجع سابق، ص٤٠.

[١٩]. المصدر نفسه.

[٢٠]. القلقشندي، مصدرسابق، ج١، ص١٠٣.

[٢١]. المصدر نفسه، ص١٠١.

وصدق الحس ولطف المذهب وحلاوة الشمائل وأن يكون بهي الملبس نظيف المجلس، كل ذلك من فرط الاهتمام بهذا الديوان ولهذا لا غرابة أن جاءت رسائل الخلفاء والأمراء المسلمين إلى أباطرة الدولة البيزنطية بليغة دقيقة في معانيها ومقاصدها، ذات ديباجة رائعة بين الإيجاز والإطناب تنم عن مهارة في الصياغة وسعة في الثقافة.

وقد كان صاحب ديوان الرسائل في منزلة رفيعة عند الخلفاء لا يقارن فيها ولا يضاهي صاحب ديوان آخر في كل العصور، وفي وصف القلقشندي له أنه: " ليس في منزلة خدم صاحب السلطان والمتصرفين في مهماته أخص من كاتب الرسائل، فإنه أول داخل على الملك وآخر خارج عنه ولا غنى له عن مفاوضته في آرائه، والإفضاء إليه بمهماته وتقريبه من نفسه في أناء ليله وساعات نهاره وأوقات ظهوره للعامة وخلواته واطلاعه على حوادث دولته ومهمات مملكته فهو كذلك لا يثق بأحد من خاصته ثقته به، ولا يركن إلى قريب ولا نسيب ركونه إليه[٢٢].وكان صاحب الديوان هو الذي ينشئ المكاتبات الصادرة من الخلفاء إلى الملوك والأباطرة، ويساعده جملة من الكتاب الحاذقين في تحرير الرسائل ومراجعتها، ولا بد أن يكون صاحب الرسائل ذا أناة وروية بعيداً عن العجلة والسرعة وملازما للخليفة ولا يبخل عليه برأي صائب أو تدبير حميد، كاتماً لأسرار حاكمه ودولته.

وكانوا يستحسنون فيه سرعة إنجازه لمهام وظيفته، وأن يصدر جواب كل رسالة في اليوم الذي تصل فيه بعد أخذ الرأي وتبادله حولها مع حاكمه فيستحسن رد رسالة بيوم وصولها، فإنه يدل على هيبة الحاكم ومتابعته لأحوال دولته دون إهمال.[٢٣]

وهكذا كان هذا الديوان أهم دواوين الدولة الإسلامية وكانت وظيفته دقيقة في علاقتها بالدول الأخرى ولهذا اهتم به المسلمون اهتمامه فائقاً وكان يشبه في وظائفه وأجهزته وزارة الخارجية في الدول الحديثة اليوم ولقد فاقت وظائفه هذه الوزارة في أغلب الأحيان بما كان يقوم به من مكاتبات لولاة الأقاليم في الداخل والخارج وتلقي رسائلهم واستقبال الوفود.

أوراق الطريق والاعتماد:

أوراق الطريق والاعتماد هي التي يحملها السفير المسلم معه للتعريف به وتسهيل مهمته وتيسير تنقلاته بدءا من انطلاقه من عاصمة دولته أو المدينة التي يستقر فيها الحاكم الذي بعثه، ومرورا بنقاط الحدود بين دولته والدولة الموفد إليها ثم دخوله عاصمتها وعودته إلى بلاده، وتصدر هذه الأوراق من ديوان الرسائل.

وكانت هذه الأوراق تعتمد من الخليفة أو الأمير ويوضع عليها ختمه، وتتضمن تعريف بالسفير والغرض من مقدمه وطلب تمكينه واعتماده في أقواله وأفعاله، نحو إركابه على خيل البريد لسرعتها وانتظام أوقاتها آنذاك مما يكفل أداء مهمته في أسرع وقت، والسماح لمرافقه أو مرافقيه بمصاحبته واعفاء ما يحمله من هدايا ونحوها من المكوس[٢٤].ويحمل هذه الأوراق الأشخاص الموفدون من الخليفة إلى الدول والإمارات الأخرى وكان السفراء البيزنطيون يحملون أوراقا مشابهة من أباطرتهم، وتشابه أوراق الطريق الرسائل التي يحملها الرسل بين الحكام في مادتها فقد كانت التقاليد المتبعة في كتابة أوراق

---

[٢٢]. القلقشندي، مصدر سابق، ج١،ص ١٠٢

[٢٣]. العدوي، ابراهيم أحمد، السفارات الاسلامية إلى اوربا في العصور الوسطي، دارالمعارف، القاهرة،١٩٥٧م، ص ٤٣

[٢٤]. فوده، مرجع سابق، ص ١٥٤

الاعتماد وتصاريح العبور أن تكتب على أجود أصناف الورق المعروفة في ذلك الوقت فضلا عن تدبيجه بأوضح العبارات وتزويقه بجميل الخط والشكل وتكتب في هذه الأوراق بلغة بلد السفير وترفق بترجمة لها حتى إذا ما دخل أراضيها لقي من التيسير والمساعدة مثلما وجده أثناء جوازه أقاليم دولته[٢٥]،وقد طورت هذه الأوراق في العصور الإسلامية المتأخرة من حيث التنظيم والدقة وعثر على العديد منها ترجع إلى عصر المماليك في مصر، وعموما هذه الأوراق تعتبر جواز الطريق والاعتماد الذي يحمله السفراء المسلمون في وقاداتهم بين الدول ويعتبر بذلك الصورة الأولى والتاريخية لجواز السفر الدبلوماسي المعروف في الدبلوماسية الحديثة.

الأمان:

الأمان هو إجراء يشمل حماية السفراء والمرافقين لهم عند دخولهم أراضي الدولة الإسلامية من الاعتداء والاعتراض لهم أو فرض الجزية عليهم أو أخذ العشور على أمتعتهم وما يحملونه فالسفير في أمان حتى يعود إلى دولته وقد اهتم الفقهاء المسلمون بهذا كثيراً سواء قدم الرسول بطريق البر أو البحر فإن لدى ولاة المسلمين على الثغور وعمالهم على مآصر الحدود تعليمات لتنظيم دخول السفراء والاهتمام بهم وحمايتهم[٢٦]، فإذا ما تأكدوا من أوراق الطريق التي يحملونها فإنهم سرعان ما يسمحون لهم بالتوجه إلى عاصمة الدولة بمرافقة أمير الثغور أو من ينوب عنه، وكان المسلمون يسمحون بدخول ما يحمله السفراء من أمتعة وغيرها وإعفائها من الضرائب، ولكن لا يسمح للسفراء بإدخال سلاح لخطورته أو مشروبات محرمة كالخمور لأنها-محرمة كما لا يسمح لهم بحمل السلاح ونحوه عند خروجهم مما يكون قوة لدولتهم على المسلمين[3] ، ولقد ظلت الدولة الإسلامية حريصة على أمان السفراء ومعاملتهم بكل لباقة ولم يذكر في التاريخ حادثة عاملت بها الدولة الإسلامية السفراء الوافدين إليها معاملة تشذ عما قررته القواعد والنظم الدبلوماسية في أمان السفراء، ومن ثم كفلت له الأمان حتى يؤدي رسالته بنجاح، وأن صفته الرسمية تقضي عليه مهام لا يستطيع القيام بها بدون ذلك الأمان.

القرار الدبلوماسي في علاقات المسلمين بالبيزنطيين:

يعد القرار الدبلوماسي والبت فيه ركيزة مهمة في سياسة الدول الخارجية وعلامة بارزة على نجاحها أو فشلها. وقوة القرار أو ضعفه دليل على صانعيه لهذا بقى لفترات طويلة من صلاحيات الخلفاء والأمراء والأباطرة خاصة ممن اشتهروا بقوتهم السياسية والحربية، وفي صدر الدولة العباسية ظل صنع القرار الدبلوماسي مهمة الخليفة، أما في العصور اللاحقة فقد تراوح إصدار القرار بين السلطان والوزراء ورئيس ديوان الرسائل حسب قوة نفوذ كل منهم، ولم يبق للخليفة غير إقراره وإمضائه، فنجد عندما أساء البيزنطيون معاملة الأسرى المسلمين يسارع الوزير على بن عيسى إلى الاهتمام بالوضع ويخاطب البطريق بشأن تلك المعاملة، ويندب الوزير مبعوثا عباسياً لاستجلاء الموقف ورفع الضرر والتضييق عليهم ويلهج الأسرى بعد ذلك بالدعاء للوزير بعد تحسن حالهم، ولم يكن معروفا لنا على وجه التحديد

---

[٢٥]. فوده ،مرجع سابق،ص١٥٤

[2] .المأصر، جمع مأصر، ومأصر بفتح الصاد وكسرها، والفعل منه أصر يأمر أصرة وأصر أي حبس، والمأصر هو محبس أو حبل يمد على طريق أو نهر توصر به السفن أو التجارة أي تحبس لتؤخذ منها العشور، ابن منظور، مصدر سابق، ج ١، ص ٦٧.

[٢٦3]. العدوي، مرجع سابق، ص ٤٩.

موقف الخليفة المقتدر إلا أن المصادر تشير إلى أن الوزير كان هو صاحب هذا القرار[٢٧].أيضا يدور الحوار طويلا بين السفير العباسي ابن شهرام الذي بعث إلى بيزنطة في عهد الخليفة الطائع وبين البيزنطيين بشأن اللاجئ البيزنطي ورد، ولم يرد فيما وصلنا من هذا الحوار اسم الخليفة وإنما يدور باسم عضد الدولة البويهي متولي السلطة بل أن اللاجئ نفسه يكاتب عضد الدولة في السماح له بالبقاء في البلاد.

التعليل على هذا أنه مظهر من مظاهر السيطرة على الخلفاء الذي شهدته تلك الفترة، وحجبهم عن مباشرة أمور الدولة حقا ومنها إصدار القرار الدبلوماسي ولم يبق لهم من تلك الأمور غير الاسمية والأمر المشترك بين القوى الإسلامية في المجال الدبلوماسي هو العناية والتدقيق باختيار السفراء [٢٨]

أما في الدولة البيزنطية فقد كان الإمبراطور يعتبر نفسه ظل الله في أرضه ونائبه، فهو صاحب القرار في مختلف شئون الإمبراطورية ومنها السياسة الخارجية لها إلا أن مجلس الشيوخ وكبار قواد الجيش كان لهم تأثير بارز في السياسة وبالذات في مجال عقد المعاهدات وقرارات الحرب مع الدول المجاورة.[٢٩]

وكان بعض أولئك الرجال وصي أو مدير لشئون الأباطرة القاصرين وقد قابل السفير العباسي نصر بن الأزهر الإمبراطور ميخائيل الثالث فذكر أن خاله أورسطيس كان هو المتصرف في شئونه، وهو الذي تولى مفاوضة هذا السفير، كما كان لبعض زوجات الأباطرة تأثير على أزواجهن في مجال العلاقات مع الدول الأخرى مثل ثيودورا زوجة جستنيان الأول أو أولئك اللاتي أصبحن إمبراطورات مثل إيرين أو وصيات على أبنائهن القاصرين مثل زوي [٣٠] Zoe، والمؤسف أن المصادر المعروفة لا تزودنا بتراجم مفصلة لكثير من أولئك السفراء حتى نتعرف منها على سيرتهم وما تحلوا به حتى أصبحوا مؤهلين لأن يقوموا بمثل هذه المهام الخطيرة وما صادفهم هناك وأجروه، وكيف عاملهم البلاط البيزنطي على وجه التحديد وكيف قابلوا هذه المعاملة وما هي الصورة التي أعطوها للمجتمع البيزنطي عن المجتمع الإسلامي وأحواله في المشرق وفي مصر والأندلس بل أن تلك المصادر تقتصر في كثير من الأحيان على ذكر اسم هذا السفير أو ذاك أو حتى الاكتفاء بذكر أن الخليفة أو الأمير أرسل مبعوثا له إلى ملك الروم وتبقى مهمة العثور عن ترجمة أو نبذة عن هذا المبعوث صعبة ويبقى هذا العلم الذي كان معروفاً في عصره بكفاءته لأن يختار موفداً لدولته يصبح لنا مجهولا[٣١]. ولعل ما يهون الخطب ويخفف من عقدة هذه المشكلة أنه تحوي تلك المصادر في أحيان قليلة أخبار متفرقة عن علم قام بالمهمة في العصر نفسه مما يلقي الضوء على نوعية أولئك الرجال الذين يختارون موفدين لدولتهم إلى الدول الأعجمية والصفات والكفاءة التي كانوا يتحلون بها، وبالتالي تصبح دراسة هذا السفير وترجمته نموذجا يقاس عليه لمعرفة بقية سفراء دولهم فيما كانوا عليه من الصفات وما قاموا به من مهمات.[٣٢]

---

[٢٧]. ابن الجوزي (أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي ت٥٩٧هـ/١٢٠٠م) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، حيدابادالركن،١٣٥٩هـ/١٩٤٦م، جـ٦، ص ٢٥٢ – ٢٥٣

[٢٨]. الطبري، مصدر سابق، ج ٩، ص ٢١٩.

[٢٩]. p133 , 3 Miller ,Studies in Byzantine Diplomacy ,London 198 ،

[٣٠]. الطبري، مصدر سابق، ص ٢٢٠.

[٣١]. الطبري مصدرسابق، ص ٢٢١.

[٣٢]. الرحيلي، مرجع سابق، ص ٢٢٩.

ولكن حتى السفراء الذين نجد لهم تراجم في المصادر المختلفة فإن تلك التراجم جاءت من خلال ما اشتهروا به من صفات وقدرات في مجالات الفقه والقضاء والشعر وغير ذلك وذكر هذا عرضا واقتصر على مواقف جانبية لهم غير ذات أهمية أما المهمات الأساسية التي ذهبوا من أجلها والقضايا التي ناقشوها مع البيزنطيين فلم تتطرق لها تلك المصادر ويمكن تفسير ذلك من وجهين :[٣٣]

الأول: قد تكون تلك الأمور التي ذهب السفراء من أجلها سرية ولم يتمكن المؤرخون المعاصرون بطبيعة الحال من معرفتها في وقتها ولهذا اقتصرت معرفتهم واطلاعهم على أمور جانبية من مهمات أولئك السفراء، وهو أمر ليس بمستبعد على ما هو معروف من سرية القضايا التي يبحثها المبعوثون والسفراء مع زعماء الدول في أحيان كثيرة.

الثاني: أن يكون أولئك السفراء نقلوا رسائل مكتوبة من الخلفاء إلى الأباطرة وكانت مهمتهم إيصالها في الغالب، وردت معظم محتويات تلك الرسائل في ثنايا كتب التاريخ العام واكتفى مصنفو التراجم بذلك دون أن يعيدوها عندما ترجموا لبعض حامليها ثم ذكروا ما جرى لهم من مواقف أخرى مما لم تلم به كتب التاريخ العام.

السفير العباسي أبوبكر الباقلاني:

هو أبوبكر محمد بن الطيب المعروف بالباقلاني، أصله من مدينة البصرة وسكن بغداد، وكان مالكي المذهب "إمام وقته وعالم عصره المرجع إليه فيما أشكل على غيره" اشتهر بعمله وصلاحه وكان ورده في الليلة عشرين ترويحة، وله عدد من المصنفات في الحديث والفقه وعلم الكلام، تولى القضاء في عهد الخليفة القادر. وكان وثيق الصلة بعضد الدولة البويهي ولما رأى من سعة علمه وحنكته اختاره لأن يكون سفيرة إلى الإمبراطور البيزنطي باسيليوس الثاني بشأن لجوء ورد والمفاوضة في وضعه[٣٤]. وقد عرف البيزنطيون علو منزلته العلمية ورفعة شأنه وعلو مكانته وعقدوا له عدة مناظرات علمية على الرغم من الغموض والإيجاز في أخبار مهمته السياسية، جمعوا له عددا من رجال الدين النصارى وعلى رأسهم بطريق القسطنطينية نيقولا الثاني لمناظرته في مجلس الإمبراطور حول عدة قضايا دينية جدلية منها قضية انشقاق القمر كإحدى معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم، وأنهم لا يصدقون ذلك بدعوى عدم رؤية النصارى لهذا الانشقاق فحاجهم الباقلاني بأن الانشقاق مثل الكسوف لا يراه من كان ناحيته و مترصدا له، ثم إن المائدة التي أنزلت على عيسى عليه السلام يقول الله تعالى (قال عيسى ابن مريم أللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا وآية منك ورزقنا وأنت خير الرازقين قال الله إني منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين) معجزة له يؤمن بها النصارى لم يرها المسلمون واليهود ولا يعني ذلك عدم حدوثها فتعجب المجلس من قوة حواره وحسن استدلالهم.[٣٥]

كما عقد البيزنطيون مناظرة أخرى مع الباقلاني حول المسيح عليه السلام، ويروي الباقلاني بنفسه ما دار بينه وبين الإمبراطور وبحضور كبار رجال الدين وبعض القواد والوزراء: ما تقولون في

---

[٣٣]. المرجع نفسه، ص ٢٢٩

[٣٤]. سورة المائدة، الاية ١١٤ _ ١١٥.

[٣٥]. أبو الحسن النباهي (أبو الحسن على بن عبد الله المالقي المتوفى سنة ٧٧٦هـ)، تاريخ قضاة الأندلس المسمى كتاب المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا، دار الكتب العلمية، بيروت (بدون تاريخ)، ص ٣٨.

المسيح عيسى بن مريم؟ فأجابه الباقلاني: روح الله وكلمته وعبده ونبيه ورسوله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون[٣٦]،فقال يا مسلم تقولون المسيح عبد؟ فقال نعم كذا نقول وبه ندين قال: ولا تقولون إنه ابن الله، قال الباقلاني: معاذ الله "ما تخذ الله من ولد وما كان معه من إله[٣٧]"وأنكم لتقولون قوة عظيمة [٣٨]"فإذا جعلتم المسيح ابن الله فمن كان أبوه وأخوه وجده وخاله وعمه، وعددت عليه الأقارب. فتحير وقال: يا مسلم العبد يخلق ويحي ويميت ويبرئ الأكمه والأبرص؟ فقلت: العبد لا يقدر على ذلك، وإنما كله من فضل الله تعالى، قال: " وكيف يكون المسيح عبد الله وخلقا من خلقه وقد أتى بهذه الآيات وفعل ذلك كله؟ " قلت معاذ الله ما أحيا المسيح الموتى، ولا أبرأ الأكمه والأبرص، فتحير وقل صبره وقال: يا مسلم تنكر هذا، مع اشتهاره في الخلق، وأخذ الناس له بالقول، فقلت: ما قال أحد من اهل الفقه والمعرفة أن الأنبياء يفعلون المعجزات من ذاتهم وإنما هو شيء يفعله الله تعالى على إياديهم تصديقا لهم، يجري مجرى الشهادة. فقال قد حضر عندي جماعة من أولي دينكم والمشهورين فيكم وقالوا أن ذلك في كتابكم فقلت : في كتابنا أن ذلك كله بإذن الله تعالى وتلوت عليه منصوص القرآن في المسيح " وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وإذا تخلق من الطيب كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيها فتكون طيرا بإذني وتبري الأكمه والأبرص بإذني وإذ تخرج الموتى بإذني[٣٩]" وقلت إنما فعل المسيح ذلك كله بالله وحده لا شريك له، لا من ذات المسيح، ولو كان المسيح يحي الموتى ويبرئ الأكمة والأبرص من ذاته وقوته لجاز أن يقال أن موسى خلق البحر، وأخرج يده من غير سوء من ذاته دون إرادة الخالق فلما لم يجز هذا أنه تسند المعجزات التي ظهرت على يد المسيح للمسيح[٤٠].وفي أحد الأيام أعد الإمبراطور استقبالا للباقلاني فحضر في اليوم المحدد وقد حفل المجلس بالحضور فأدناه الإمبراطور في ترحيب ظاهر وأجلسه على كرسيه، وكان الإمبراطور وحاشيته وقادته في كامل زينتهم فما كاد يكتمل المجلس حتى أقبل البطريق مع حاشيته في زي حسن، وقام له الإمبراطور وحاشيته تعظيما له وأجلسه إلى جانب الباقلاني وعرفه بالبطريق ومكانته الدينية، فسلم الباقلاني عليه بحفاوة وقال له في لباقة ودهاء "كيف حال الأهل والولد ؟" وهو يعلم أن البطارقة لا يتزوجون وبالتالي ليس لهم أولاد، ولكن الباقلاني كان له مغذي من السؤال فوجم الجميع ثم أنكروا عليه مقالته فأوضح لهم بقوله " يا هؤلاء تستعظمون لهذا الإنسان اتخاذ الصاحبة والولد وتربون به عن ذلك، ولا تستعظمونه لربكم، عز وجهه، فتضيفون إليه ذلك سدة لهذا الرأي ما أبين غلطه [٤١]".فأسقط في أيديهم ولم يردوا جوابا وتداخلاتهم له هيبة عظيمة فانكسروا، ثم قال الإمبراطور للبطريق: "ما ترى في أمر هذا الرجل" قال: "تقضي حاجته وتلاطف صاحبه وتخرج هذا العراقي عن بلدك من يومك أن قدرت " وإلا لم تأمن الفتنة على النصرانية منه " فنفذ الإمبراطور ذلك وعجل فيه وأحسن الرد على كتاب عضد الدولة الذي حمله الباقلاني له وحمله بعض الهدايا لعضد الدولة، وأطلق له بعض الأسرى المسلمين، ووكل به من يحرسه أثناء الطريق حتى يصل إلى مأمنه. [٤٢]

---

[٣٦]. سورة آل عمران،الآية ٥٩.

[٣٧]. سورة المؤمنين،الآية ٩١.

[٣٨]. سورة الإسراء،الآية ٤٠.

[٣٩]. سورة المائدة، الاية ١١٠.

[٤٠]. النباهي، مصدر سابق، ص ٣٩.

[٤١]. الرحيلي، مرجع سابق، ص ٢٣٤

[٤٢]. النباهي، مصدر سابق، ص ٤٠

وفي إحدى المرات دبر له رجال البلاط البيزنطي مكيدة قصدوا منها أن يخضع السفير المسلم في جلالة علمه للإمبراطور عند دخوله عليه، وعلى ما تعودوا عليه من الخضوع للأباطرة وتقبيل الأرض بين أيديهم فعملوا بابا صغيرا غير مرتفع لمجلس الإمبراطور فينجبر الداخل معه على إخضاع رأسه عنوة في هيئة الراكع، وجلس الإمبراطور كعادته في صدر المجلس، وأدخلوا عليه الباقلاني من لدن ذلك الباب فلما وصل إليه فطن إلى المقصود وبدلا من أن يحني رأسه أمام الإمبراطور استدار إلى الوراء وحنا رأسه وواجه الإمبراطور بعجزه ودخل على قفاه في وجه الإمبراطور حتى جاوز الباب فاستدار واقفا أمامه، فعجب الإمبراطور من حسن تصرفه وحيلته وبعد فطنته. [٤٣]

وقد يفسر توفيق الباقلاني في مواقفه وسعة علمه وحسن تصرفه الغموض الذي يحيط بمهمته السياسية وذلك أن الحوار كان طويلا ومفصلاً؟ أكثر مما أوردنا ولكنها فقدت قبل أن تصلنا في المدونات التاريخية. وظل أبوبكر الباقلاني قاضياً في بغداد ومقرباً من الخليفة العباسي القادر ورجل مهماته ففي سنة ثلاثمائة وتسعين بعثه الخليفة إلى بهاء الدولة البويهي يبلغه خلع أبي المنيع العقيلي قرار طاعة العباسيين في الموصل وإعلان الخطبة باسم الحاكم الفاطمي. توفي أبوبكر الباقلاني في سنة أربعمئة وثلاث بعد عمر مديد قضاه بين دور العلم والقضاء وبلاط الخلفاء والملوك.[٤٤]

معاملة السفراء ومهماتهم بين الدولتين:

كانت العلاقات السياسية مع العرب في الشرق والغرب أمراً أساسياً بالنسبة لبيزنطة فقد كانت مراسم استقبال السفارات العربية التي كانت توفد إلى القسطنطينية في فترات الصلح تجري على أسلوب دقيق محكم، وكانت بيزنطة تستقبل السفراء وترحب بهم بكل مظاهر الاحتفال الباهرة في البلاط والمجاملات الدبلوماسية وعرض القوات العسكرية إظهارا للقوة وفي مراسم البلاط البيزنطي أوصافا للاستقبال البالغ الذي كان البيزنطيون يستقبلون به سفراء بغداد والقاهرة حيث كان العرب يحتلون على المائدة الإمبراطورية مقاعد أعلى من مقاعد الأصدقاء الفرنجيين، وكان عرب المشرق يجلسون في أمكنة أشرف من أماكن عرب المغرب[٤٥]، أما سفراء الروم حيثما كانوا يفدون على بغداد كان الخليفة يستقبلهم استقبالا رسميا في أبهة بالغة ويقيم عرضا عسكرياً شاملا.

ومن الأمور التي اضطلعت بها السفارات والتي تبادلتها الدولتان البيزنطية والإسلامية حمل السلطات الحاكمة في الدولتين على إعادة النظر في بعض القرارات التي تفرض على أتباع دين من الأديان من رعاياهما واتخاذ سمة خاصة بهم، لجأت هاتان الدولتان لهذه القوانين الدينية أو المعاملة الدينية تحقيقا لمصالحهم السياسية والحصول على امتيازات أدبية[٤٦]. كذلك عاملت الدولة البيزنطية المسلمين الذين وفدوا إليها معاملة ممتازة تكشف ما تكنه للدولة الإسلامية من احترام وتقدير. تجلت أوضح مظاهر تبادل الزيارات في السفارات التي كان يوفدها كل فريق لعقد هدنة أو لصلح أو لإجراء مفاوضات لإطلاق

---

[٤٣]. الخطيب البغدادي (أحمد بن علي ت ٤٦٣هـ/١٠٧١) تاريخ بغداد، القاهرة، ١٩٣١م، ص ٣٧٩ -٣٨٠.

[٤٤]. ابن كثير (عماد الدين أبو الفداء اسماعيل) البداية والنهاية، طبعة مصر،١٣٥٨هـ، ج ١١، ص ٣٥٠

[٤٥]. فازيليف، محمد عبد الهادي شعيرة، العرب والروم، ترجمة وتحقيق محمد عبد الهادي، دار الفكر العربي، بيروت، ١٩٩٨م، ص ٣٩ -٣٩٠.

[٤٦]. نورمان بينز، الامبراطورية البيزنطية، ترجمة حسين مؤنس ومحمود يوسف زايد، ط١، دار المعارف، القاهرة١٩٥٥، ص ٣٦٤ -٣٦٥

سراح الأسرى، حيث كان يتولى مهمة الإشراف على هذه السفارات سواء الإسلامية أو البيزنطية كبار رجال الدولة محملين بالهدايا الثمينة والمجوهرات ومزينين بأجمل مظاهر الأبهة.[٤٧]

أيضا قامت سفارات علمية بين الدولتين الإسلامية والبيزنطية للكشف والتعرف على ما بالدولتين من الآداب والعلوم الثقافية والتجارية. [٤٨]

سفارة ملك الروم إلى الخليفة المقتدر (سنة ٣٠٠هـ/ ٩١١م):

ترك لنا الخليفة المقتدر صورة زاهية لاستقبال السفراء الروم في بلاط الخلافة فقد أورد ابن الجوزي (٧) إنه سنة ٣٠٠هـ/ ٩١١م قدم رسل ملك الروم إلى مدينة السلام وهم غلام حدث السن ومعه شيخ و عشرون علجاً فأقيمت له الأنزال الواسعة ثم أحضروا بعد أيام دار السلطان وأدخلوا بعد أيام إلى دار الخليفة من باب العامة وقد هيئ لهم العسكر وصف بالأسلحة التامة، وكانوا مائة وستين ألفاً بين فارس وراجل وكانوا من أعلى باب الشماسية إلى الدار وبعدهم الغلمان الحجرية والخدم والخواص بالسمة الظاهرة والمناطق المحدودة وكانوا سبعة آلاف خادم منهم أربعة آلاف بيض وثلاثة آلاف سود وكان الحجاب سبعمائة حاجب، والسمبريات بأفضل زينة وسار الرسول فمر على دار نصر القشوري الحاجب وحمل إلى دار الوزير فرأى أكثر مما رأى ولم يشك أنه الخليفة فقيل له أنه الوزير وزينت دار الخليفة، فطيف بالرسول فيها فشاهد ما هاله وكانت الستور ثمانية وثلاثين ألف ستر والديباج المذهب فيها أثنا عشر ألف وخمسمائة وكانت البسط أثني عشر ألفا وكان في الدار من الوحش قطعان تأنس بالناس وتأكل من أيديهم وكان هناك مائة سبع كل سبع بيد سباع ثم أخرج إلى دار الشجرة وكانت شجرة في وسط بركة ماء صاف و بالشجرة ثمانية عشر غصنا لكل غصن منها شاخصات كثيرة عليها الطيور والعصافير من كل نوع مذهبة ومفضضة وأكثر قضبان الشجرة فضة وبعضها مذهب وهي تتمايل ولها ورق مختلف الألوان وكل شيء من هذه الطيور يصفر.[٤٩]

ولما دخل الرسول إلى دار الشجرة وراها كثر تعجبه بها، ثم أدخل إلى الفردوس وكان فيه من الفرش والآلات ما لا يحصي وفي دهاليزه عشرة آلاف جواشن[٥٠]،مذهبة معلقة[٥١]،وكانوا قد أدخلوا إلى الدار المعروفة بخان الخيل وأكثرها أروقة باسطين رخام فيها من الجانب الأيمن خمسمائة فرس عليها خمسمائة مركب ذهب وفضة بغير أغشية، ومن الجانب الأيسر خمسمائة فرس عليها الجلال الديباج بالبراقع الطوال، ثم أدخلوا من هذه الدار إلى الممرات والدهاليز[٥٢]،إلى أن وصل إلى المقتدر وهو جالس على سرير أبنوس قد فرش بالدبيقي المطرز وعن يمنة السرير تسعة عقود معلقة وعن يسرته تسعة أخرى من أفخر الجواهر يعلو ضوؤها على ضوء النهار، فلما وصل الرسولان إلى الخليفة وقفا عنده على نحو مائة ذراع وعلى بن محمد بن الفرات قائم بين يديه والترجمان واقف يخاطب ابن الفرات وابن الفرات

---

[٤٧]. العدوي، مرجع سابق، ص ١٦٣.

[٤٨]. ابن الجوزي (أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن ممد بن علي بن الجوزي) ت ١٢٠١ / ٠٩٧م، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ٨أجزاء، مطبعة المعارف العثمانية، بيروت، ١٣٥٧هـ، ج٢، ص ١٤٣ – ١٤٤.

[٤٩]. ابن الجوزي، مصدر سابق، ص ١٤٤

[٥٠]. جواشن، درع او زود يلبس في الصدر

[٥١]. ابن الجوزي،مصدر سابق، ص ١٤٤

[٥٢]. الطبري، مصدر سابق، ص ٣٣-٣٤

يخاطب الخليفة ثم أخرجا وطيف بهما في الدار حتى أخرجا إلى دجلة وقد أقيمت الفيلة مزينة والزرافة والسباع والفهود.[٥٣]

وهكذا كان المسلمون والبيزنطيون يحرصون على أن يطلعوا السفراء على أبهة ملكهم وعظمته بوضع برنامج لزيارة السفير يشاهد فيه روائع المنشآت وتقديم الهدايا تكون صورة مشرقة للبلد الآخر وقد خصصت دور الضيافة لاستقبال السفراء، والتراجمة المصاحبين لهم، كما كان البيزنطيون يدققون في مراقبة السفراء خشية التجسس.[٥٤]

[٥٣]. ابن الجوزي، مصدر سابق، ص ١٤٤

[٥٤]. عثمان ،فتحي الحدود الإسلاميةالبيزنطية، دار الكتاب العربي، القاهرة، د.ت، ص ٤٠٩-٤١٠

الخاتمة

كانت الصلات الحضارية قائمة بين العرب والروم، ونلاحظ أن الحروب لم تغير في شكل العلاقة بين العرب والروم والتي لم تتميز بصفة الخصومة الدائمة بل كانت احياناً أقرب إلى التودد وبمعنى أصح ما بين مد وجزر ولا سبيل سوى ذلك لأن الاتصال قائم بينهما بحكم الظروف الجغرافية والتاريخية والثقافية.

أتخذ اسلوب العمل الدبلوماسي لدى العباسيين عدة طرق منها الطريقة الاولى تمثلت في ارسال ممثل شخص يعرف بالسفير، الطريقة الثانية تمثلت في الرسائل المكتوبة، وقد أخذت أهمية كبرى في الاتصالات الدبلوماسية بين بيزنطية والمشرق الإسلامي.

لاريب أن اختبار السفير العربي أو البيزنطي كان يتم وفقاً لمواصفات معينة كالزكاء والثقافة وبعض الصفات الضرورية الاخرى، وهناك العديد من المظاهر التي تظهر قوة الدولة ومدى تقدمها وتطورها الحضاري، بالإضافة الى الكرم الفاخر الذي يليق بالسفير أو الوفود، مع وجود ضرورة تبادل الهدايا بين الطرفين وعلى الرغم من كل ذلك لم يمنع الدولة من اتخاذ الحيطة والحذر ومراقبة السفير.

قائمة المراجع

القرآن الكريم.

ابن الجوزي، أ.ف.ع.م. (١٩٤٦). المنتظم في تاريخ الملوك والأمم. حيدر أباد الركن.

ابن الفراء، أ.ع.ح.ب.م. (١٩٩٣). رسل الملوك وما يصلح للرسالة والسفارة (تحقيق: ص. المنجد). بيروت: دار الكتاب العربي الجديد.

ابن حجر، ش.د.أ.ع. (١٣٨٣هـ). الإصابة في تميز الصحابة (تحقيق: ع.م. البجاوي). القاهرة: دار النهضة.

ابن منظور، أ.ف.ج.د.م.ب.م. (١٩٥٥). لسان العرب. بيروت: دار صادر.

ابن كثير، ع.د.أ.أ. (١٣٥٨هـ). البداية والنهاية. مصر.

أبو الحسن النباهي، أ.ح.ع.ب.أ.م. (٧٧٦هـ). تاريخ قضاة الأندلس المسمى كتاب المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا. بيروت.

الأزهري، أ.م.م.أ. (١٩٦٦). تهذيب اللغة (تحقيق: أ. البر). القاهرة.

الخطيب البغدادي، أ.ب.أ. (١٩٣١). تاريخ بغداد. القاهرة.

السيوطي، ج.د.ع. (١٥٠٥م). الجامع الصغير (الطبعة الرابعة). القاهرة.

الطبري، م.ب.ج. (١٩٢٢). تاريخ الرسل والملوك (تحقيق: م.أ.ف.إ.). القاهرة: دار المعارف.

القلقشندي، أ.ع.أ. (١٤١٨هـ). صبح الأعشى في صناعة الإنشاء. القاهرة: المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والطباعة.

المسعودي، أ.ح.ع. (١٩٧٣). مروج الذهب ومعادن الجوهر (تحقيق: م.م.د.ع.). بيروت: دار الفكر.

إبراهيم أحمد العدوي. (١٩٥٧). السفارات الإسلامية إلى أوروبا في العصور الوسطى. مصر: دار المعارف.

سليمان الرحيلي. (١٤١٤هـ). السفارات الإسلامية إلى الدولة البيزنطية. الرياض: مكتبة التوبة.

عزالدين فوده. (١٩٦٠). النظم الدبلوماسية. القاهرة: دار الفكر العربي.

فتحي عثمان. الحدود الإسلامية البيزنطية. القاهرة: دار الكتاب العربي.

فازيليف، م.ع.ش. (١٩٩٨). العرب والروم (ترجمة: م.ع.ش.). بيروت: دار الفكر العربي.

نورمان بينز. (١٩٥٠). الإمبراطورية البيزنطية (ترجمة: ح. مؤنس ومحمد يوسف ذايد). القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.